الأمومة أو هو وهى

للكاتبة الفرنسية الخالدة — جورج صاند

معربة بقلم الأستاذ مختار الوكيل

هذه قصة غرام عنيف غريب استبد بفؤادى فنانين فذين : هما الرسامان تيريز (مدموازيل جاك) ولوران .

ولكن أى تباين بين طباعهما وأى اختلاف عظيم بين مزاجيهما .

فهذه تيريز امرأة تنطوى على رقة وعطف شديدين ، وهى مطبوعة على السماحة والأريحية ومزاجها عاطفى ولكن بقدر ، ويغلب على طبيعتها الميل إلى المنطق السليم الهادئ وهى — إلى ذلك — كثيرة التأمل ، عريضة الأحلام ، تهوى المناظر الريفية ذات البهاء القشيب ، وتعيش على الأحاسيس الرقيقة النقية . وهى فنانة خصبة الخيال ، وافرة الذكاء وإن كان ذلك الذكاء — على الأرجح — ليس أصيلا فى نفسها لأنها سريعة التأثر بمن حولها من الأصدقاء . وجملة القول فى وصفها إنها تعمل الى تجميل الحياة وتهذيب المشاعر .

أما صاحبها لولان فهو شاب عصبى متقلب الأهواء كريشة فى مهب الريح . إنه (الطفل) المدلل المتلهف . . . هو مرهف الإحساس عظيم الأنانية ، متأهب على الدوام لاستقبال الحب ، وواثق أبدا من أنه سيكون محبوبا معشوقا . على أنه مع ذلك سهل التقلب ، مولع بالحياة ، لا يقنع أبدا بما يصيب من مسراتها ، سريع اليأس والقنوط . وهو على جانب عظيم من الذكاء والجاذبية . وكان قد عرف الرذيلة وانغمس فى الخطيئة وهو حدث ، ولعل ذلك هو السبب فى أنه لن يظفر أبدا بالسعادة التى لا تتهيأ إلا حيثما وجدت البساطة والفؤاد النقى الطهور . . . . . .

وهكذا يسهل علينا القول أن تيريز ولوران سيظلان ماعاشا انجذاب الضد الى ضده أنهما روحان يتعجلان الفناء والدمار لأنهما متخابان أو لأن ذلك هو مصيرهما المرسوم المحتوم فيما لهما من روحين شقيين معذبين . . .

ولتيريز ماض مفجع شديد القتام . شاءت الأقدار أن تأتى هذه الدنيا فلا تعرف لها أبا تنتسب اليه وتفاخر به اترابها . أما والدتها فتعيش اليوم بعيدة عنها ، بعد أن هجرت زوجها الغليظ الطباع الصخرى الفؤاد ، وحتى ولدها ، طفلها الوحيد العزيز قد انتزعه والده من أحضانها ، عند ما انفصلت عنه ، ولم تلبث أن جزعت فى أمومتها الحالمة الساحرة عند ما انتهى اليها أن طفلها قد مات بعيدا عن صدرها . فلا شىء أمعن غرابة وأشد هولا من

الحوادث التي صادفتها تيريز في حياتها حتى الآن . فيالها من فتاة مسكينة مفقودة النسب ، ومن أم بجعتها الاقدار في طفلها ومن امرأة منكوبة في زوجها . وهل من الشطط أوالجور القول بأن الزمان قد ادخر لها في جعبته قدرا هائلا من الشقاء والألم . . . .

ومن عجب أنها تفت هذه الصدمات الموجعة ثابتة الجنان قليلة الاحتفال. فهي تداب على العمل الفني الشاق بدارها البيضاء المزهرة التي تقع بحي الشانزيليزيه المعروف في باريس. ولقد أصبحت الآن رسامة ذائعة الصيت ذات آثار فنية محترمة مرموقة ، وكانت حقيقة بأن تظفر بالسعادة لولا أن ظهر في حياتها لوران ليفسد عليها عيشتها ويسحق فؤادها. وهكذا شاءت الأقدار الساخرة في عنفها العابث . أن تستيقظ في صدرها من جديد عاطفة الأمومة الجريحة عند ما تقبل على حب لوران الساحر الذي سيكون مصدر شقائها في مقبل حياتها .

ولقد شاء الله أن يكون لوران من أهل العبقرية ، فذاع صيته كرسام عظيم على الرغم من صغر سنه ، فقد كانت تيريز تكبره بسنوات . بيد أنه كان غريب الأطوار — أجل، كان أنانيا فاسد الخلق عظيم الاهمال . كان لا يقبل على فنه الا اذا واتاه الوحي والالهام . لم يستشعر قط الرضا والقناعة ولم يذق للسعادة طعما . وكان ثريا على لدين ، يضمر الاحتقار لكافة النساء . لقد مل الحياة وزهد فيها وهو ما يزال في مقتبل الشباب . ولعل ذلك هو السبب في أنه كان دائم التغيير ، ويبحث عن الحب في كل آن . . . .

وكانت تيريز له بمثابة الرفيق المخلص والصديق النصوح . لقد كان يستشعر شيئا من الرضا والسعادة وهو الى جوارها. انها تعرف كيف تعامله وكيف تطببه وتنتزعه من جوه المظلم وأفكاره السوداء . وتيريز هي الأخرى في حاجة الى رفيق . وها هي ذي تحبه الآن كما لو كانت أمه الصغيرة ، ولكن أي طفل فاسد مدلل ذلك الرسام الغوي . . . .

انها تريده على أن يكون أكثر انتظاما في عمله الفني، وان يكف عن انهاك نفسه في مثل هذه الحياة الفاسدة التي يحياها . وهي تدرك أنه رسام عبقري، وانه لذلك لا حق له في أن يبدد صحته ويدمر حياته . . .

ولا يلبث لوران أن يجد نفسه وقد غمرها حب تيريز. ولكنه يجاهد أول الأمر في اخفاء عواطفه ومداراة أحاسيسه، فهو لا عهد له من قبل بالحب الصادق المشبوب ، ولعل هذا هو سبب شقائه ومصدر بلواه . . . لقد كان يعوزه الحب . . . أما اليوم فهو يجد سيدة محترمة ، ولكنها غامضة . ومع ذلك فهو يطوي صدره على عواطف مختلفة هي مزيج من الطيبة والدهشة والغرور. وهو يرى في ماضي تيريز لغزا غامضا مستعصيا على الحل. لم يحدث قط أن تحدثت عن نفسها ، ومع ذلك فهو يراها سيدة محترمة قد ارتفعت فوق الظنون والشبهات . . . .

ولا يلبث لوران أن يشعر بأنه لا مندوحة له من أن يحب أو يموت . وهو يتوق الى الظفر بفؤاد تيريز مهما يكن الثمن ، وقد بدأ فى عاطفته الطاغية الجديدة ذا شخصية تلتقى فيها الموءة والرقة بالقسوة والعنف البغيض .

ولقد ناضلت تيريز بادىء الرأى نضالا عنيفا فى سبيل مقاومة حب لوران. إنها زاهدة فى ذلك الحب ، بل إنها ترهبه . وهى تفضل عليه أن تدوم بينهما الصداقة القديمة العزيزة. بيد أنها تكن للوران فى أعماقها حبا عذبا رقيقا ، أشبه ما يكون بما تضمره الأم لولدها . ولقد انتصرت عاطفة الأمومة هذه على وقارها وزراتها ، وجعلتها تؤثر أن تكون خليلة لوران على أن تفقده الى الأبد .

وهكذا ودعت تيريز المسكينة المستضعفة حياتها الهادئة المفعمة بالعمل المفيد وبدأت تستقبل عهدا مفعما بالعواطف المتأججة المتلظية . . .

كان لوران أول الأمر رائع الحماسة متدفق المشاعر . لم يكن له عهد بمثل هذا الهدوء السابغ وهذه السعادة الكاملة . إنه يحمد الله فى كل يوم على ما يحسن به من حب مخلص نبيل ولكن سرعان ما يشعر لوران بالسآمة والملل ، فقد أضحت تيريز مجردة أمامه من غموضها القديم منذ كشفت له عن دخيلة نفسها. اجل ، ان الحياة الهادئة الرتيبة لا تناسب طبيعته المتقلقلة العاصفة . وهو لا يتريث ولا يصطنع الاناة وانما يتعجل افساد تلك القصة الغرامية العظيمة . . وهكذا لا يتردد لوران فى ايذاء تيريز بكل بذىء ساقط من القول . انه يرغب فى هجرها والعودة الى عيشته الفاسدة الآثمة فهو يشعر بحاجته الدائمة الى مشاعر وأحاسيس جديدة توحى له بأعماله الفنية ، وهو لا يحجم عن أن يبادرها قائلا " المرأة هى المرأة مهما كانت ، وفى وسع الرجل أن يرضى رغباته مع احط النساء قدرا على النحو الذى تتيحه له ارفعهن شأنا . . "

انخلع فؤاد تيريز وأحست بالألم والحسرة القاتلة . لقد ضحت المسكينة فى سبيل حب لوران بسمعتها واستقرارها . أن أحدا لا يحترمها لأنها خليلة لوران ، وهو الى ذلك معروف بفساد الخلق وسوء السيرة . غير أن ذلك كله لا يمكن أن يعادل محبة قلبها المهيض. ومع ذلك فهى لا تزال ترجو أن يتغير لوران آخر الأمر ، بيد أن لوران لا يزداد الا عفا وإمعانا فى أفكاره المريضة . .

وهذا هو يقترح عليها أن يرحلا الى ايطاليا فلا تتردد فى قبول مقترحه. بيد أنها لا تلبث أن تتبين فى جنوا انه لم يعد يضمر لها حبا. وتحاول هى أن تباشر عملها الفنى الحبيب وأن تحمله على الرسم ، ولكن لوران لا يصغى الى نصحها . وسرعان ما يحس بالملال والسام من كل شىء . وهو يتوق الى حياته المبتذلة التى خلفها وراءه بما اشتملت عليه من نساء وشراب

وعبث. انه لا يستطيع أن ينتج عملا فنيا جليلا الا اذا انكب على هذه المائدة الدنسة وانهك حواسه وعواطفه . وتحول تيريز بمواصلة العمل المضنى أن تنسى وهى لا تشكو ولاتتوجع على الرغم من الامها ، ولكن وجهها كان شديد الشحوب وكانت تسير بخطوات المنوم المأخوذ وانصافا للحقيقة نقول ان لوران لم يكن غليظ الفؤاد. صحيح انه كان يسىء الى تيريز كثيرا ؛

ولكنه كان يطلب منها الصفح والمغفرة أثر كل اساءة . كانت روحه الظاهرة النقية تضج متألمة من فساد جسده . إنه كالمدمن على "الأفيون" ، يصمم عوده وتتلاشى قواه ولكنه لايستطيع منه فكاكا . . لقد بلغ السيل الزبى ، وسقط لوران منحدرا الى الهاوية جاذبا معه تيريز المسكينة السخية العواطف النبيلة الفؤاد . لقد كانت غلطتها الوحيدة أنها كانت مصابة بداء "حب الأمومة" .

أدرك لوران الآن ان تيريز أصبحت زاهدة فيه متمعضة منه ، ولكنه بدلا من أن يحاول استرداد حبها وعطفها ، راح يخفى عجزه تحت ستار من التهكم المقذع والاهانة الصارخة ، فهو يقول لها أنها تتبع نهجا رتيبا مملولا ، لاأثر فيه للفكاهة وأنه أصبح لايطيقها لأنها لاتقبل على مباهج الحياة ومسراتها . . أنها تمثال من المرمر البارد . ولا يلبث لوران أن يهجرها ليالى طويلة ، ويحاول فى الوقت نفسه أن يجد لها صديقا حتى يهجرها وقد أطمأن على مصيرها .

غير أن الصديق الذى يقع عليه ليس بالجديد على تيريز ، إذ الواقع أن "ريتشارد بالمر" من أصدقائها القدماء المخلصين ، وهو من أثرياء الامريكيين الذين يطلبون الاستمتاع والسرور فى النقل والأسفار . والحق أن بالمر رجل هادئ طيب القلب ، جدير به أن يأتى كل ما هو نبيل من الأعمال والتصرفات . وهو يلتقى مع تيريز فى كثير من عواطفه وميوله وخواجله . و ياطالما أبدى إعجابه بها واحترامه إياها . أجل ، ذلك هو الرجل الحقيق بأن يكفل لها السعادة . . إلا أن القدر لم يعد تيريز للسعادة و إنما نذرها لحياة متقلبة قاسية .

وعلى أثر شجار عنيف بين الحبيبين ، يوجه لوران فيه اليها سيلا دافقا من الشتائم المقذعة يقرران أن يفترقا وهكذا يخيل الينا أن قصة غرامهما قد انتهت . ويرحل لوران الى "فلورنسة" وتبقى تيريز فى "جنوا" مع صديقها المخلص بالمر الذى يضمر لها حبا عميقا طاغيا لا يلبث أن يحمله على مطالبتها بأن تكون زوجته . وتتردد تيريز فى القبول لا لأنها لا تزال تحب لوران . كلا فقد قضى على مشاعرها وعصف بعواطفها ، و إنما لأنها تخشى أن يؤاخذها بالمر فيما بعد على سابق علاقتها بلوران . و يقسم لها بالمر مخلصا أنه لن يفعل ذلك أبدا ، ولا يزال بها حتى تقبل ماعرضه عليها ومرة أخرى نستشعر صاحبتنا بالسعادة والفخار. أنها توشك أن تصبح زوجة بالمر .

وبغاة تصل من لوران برقية فحواها "لقد قاسيت تحسرت كانت لى خليلة فخانتنى ، فقتلتها . . ولقد تناولت السم ، وها أنذا أعالج سكرات الموت . . وداعا تيريز".

ولقد كان تصرف بالمر نبيلا كدأبه ، فلم يتردد فى أن يقول لها "يجب أن تذهب" وكان قد أدرك ما يضطرب فى أحشاء تيريز من حب أعمى للوران . ولعله أراد بذلك أن يتأكد من حقيقة مشاعر تيريز قبيل الزواج .

ويسافران الى "فلورنسة" فيبلغانها مساء ويجدان لوران فى فندق خلوى ، ولم يكن مشرفا على الهلاك كما زعم فى برقيته ، وإنما كان يعانى نوبة شديدة من الحمى المخية وتظل تيريز الى جانب فراشه اياما وليالى ترعاه بعين عنايتها وعطفها كما لو كانت أمه ، وتصنع المستحيل لانقاذ حياته . ويشاء الله أن تكلل جهودها بالنجاح ، فيعود الى لوران وعيه الكامل بعد مرض طويل عضال ، بيد أن ذهنه لا يزال بعيدا عن الصفاء الذى كان يمتاز به سابقا . لقد كان يفقد ذاكرته فى الكثير من المرات .

فيحسب أن تيريز لا تزال حبيبته الى الأبد . فهو يخاطبها على النحو الذى كان يتبعه فى مطلع علاقتهما العاطفية البائدة . وأنه ازداد غضبا واضطرابا لوجود بالمر . كم يتمنى أن يذهب فلا يعود .

ولقد أصبحت تيريز الآن فى موقف شديد الحروجة . ولكنها لا تلبث أن تذكره بما كان من أمره معها فى "جنوا" وتذكر لوران بما أسلف فى حقها من إساءة فيتذكر ، ولكنه يسألها الصفح والمغفرة وهو لا يزال مضطرب الذهن . غير أنه يأسف غاية الأسف من أجل ما فرط فى حقها . فهو يصرخ كالطفل مناشدا أياها العودة اليه ، بيد أن تيريز أصبحت قوية الارادة ، صحيحة العزم على أن تصبح زوجة بالمر . وهذه هى تقول له فى صراحة أنها تضمر له عاطفة الأمومة فقط فى حين أن حواسها وافكارها أصبحت كلها ملكا لبالمر . ويقف لوران على الحقيقة السافرة فتتدفق دموعه محاولة غسل جريرته . لشد ما كان مخطئا فى حق تيريز . لقد كان لوران صادقا فيما يعانيه من ألم مبرح فى هذه المرة . وهذا هو لا يرجو الآن سوى أن تتحقق لتيريز أسباب السعادة . ثم يعقد أمره على الرحيل الى سويسرا حيث اعتزم أن ينفق فترة النقه . ويمضيان أسبوعا آخر معا ، هو أسعد فترة فى حياة لوران . لقد كان كريما عطرفا مخلصا أمينا ، وتجلت روحه النقية المتبلورة على نحو لم تعهده فيه تيريز من قبل . لقد أصبح كتلة مجسمة من الرقة والشعور الفياض . ويحين يوم الفراق ولوران لا يزال يبدو فى ابتهاجه الحزين فهو يطلق الضحكات وعيناه شارقتان بالدمع .

البقية فى العدد القادم

مختار الوكيل

المطبعة السلفية ١٠٧٣٢-١٩٤٥-٣٥٠٠